نظرية أفعال الكلام عند أوستين

نصيرة غماري

أحاول في هذه المداخلة أن أستعرض أحد أهمّ المفاهيم التداولية، و هذا بتقديم قراءة لكتاب الفيلسوف الإنجليزي John Langshaw Austin الموسوم بـ "كيف ننجز الأفعال بالكلمات"(1) حيث يعدّ هذا المؤلّف الذي ظهر عام 1962 المؤسّس لنظرية أفعال الكلام. و قد قام "سيرل J- Searle بتطويرها و تنظيم أفكارها فيما بعد و تحديدا في كتابه "أفعال الكلام " Speech acts عام 1969.

و تأتي أهمية هذه النظرية في كونها غيّرت النظرة التقليدية للكلام التي كانت تنحاز بشدة للاستعمال المعرفي و الوصفي له، و نظرت إلى اللغة في بعدها الدينامي أي باعتبارها قوة فاعلة في الواقع و مؤثّرة فيه؛ وهي بهذا ألغت الحدود القائمة بين الكلام و الفعل؛ حيث إنّ أيّ معلومة كما يقول " "باختين" تقدّم لشخص ما هي مثارة بواسطة شي ء ما و تسعى إلى تحقيق هدف ما و بعبارة أخرى هي حلقة ضمن سلسلة التبادل الكلامي الدائر في فلك الواقع الإنساني أو الحياة الاعتيادية(2).

أحاول هاهنا أن أستعرض أهم ما تضمنه الكتاب باتباع الخطوات الآتية:

1- تتبع التمييز الذي عقده "أوستين "بين الملفوظات الخبرية و الملفوظات الإنجازية.

2- بسط النمذجة التي اقترحها المحاضر لأفعال الكلام.

1/ الملفوظات الخبرية و الملفوظات الإنجازية

حرص أوستين " في المحاضرة الأولى من : HOW TO DO THINGS WITH WORDS على التنبيه إلى أن الأكثر أهمية في الكلام، أنه يعمل على إحداث فعل ما قبل أن يكون ما يعنيه ؛ الأمر الذي دفعه إلى التمييز بين الملفوظات الخبرية: énoncés constatifs و الملفوظات الإنجازية: énoncés performatifs؛ ذلك أن وظيفة الكلام في النوع الأول، تنحصر في وصف الواقع. و هي لهذا صادقة أو كاذبة، في حين نجدها في النوع الثاني : ذات وظيفة إنجازية قادرة على التأثير في الواقع و إحداث أفعال معينة كالمراهنة و الوعد و عقد القران ..الخ. لذا لا يمكنها أن تنعت بالصادقة أو الكاذبة. وإنما تكون إما ناجحة أو فاشلة، وفشلها ينجم – في غالب الأحيان – عن خرق شروط معينة مما يستدعي شيئا آخر غير الكلمات :إنه يقتضي مراعاة السياق الذي يجري فيه التلفظ. و يمكن إجمال هذه الشروط في وجوب توفر إجراءات مسلّم بها من قبل المتخاطبين بواسطة المواضعة convention (3) و التي تتضمن بموجبها ملفوظا ذا كلمات مخصوصة تصدر من أشخاص معينين و في ظروف معيّنة .فقول "فتحت الجلسة " لا تكون له فاعلية إلاّ إذا صدر من شخص مؤهّل –رئيس الجلسة –وفي وقت العمل الجاري فيه التلفظ. و يؤدي خرق أحد هذه الشروط إلى فشل الفعل الإنجازي. و بتعبير "أ.دوكرو " فإن الأفعال الإنجازية مؤسسة على مواضعات من النوع القضائي، حيث تترتب على المتكلم و المستمع حقوق و واجبات هما مطالبان بالالتزام بها(4).

ابتداء من المحاضرة الثالثة، نشهد تراجع أوستين عن فكرة إمكانية

التمييز بين ما هو خبري و ما هو إنجازي، إذ لاحظ أن صدق الملفوظ الخبري أو كذبه يخضع هو كذلك لشروط تشبه كثيرا تلك التي تحكم الملفوظ الإنجازي. بالإضافة إلى أن الملفوظات الخبرية تحمل إلى جانب المحتوى القضَوي قيمة إنجازية ، الأمر الذي يجعلها ملفوظات خبرية – إيهامية pseudo affirmation . حملته هذه النتيجة إلى إدخال مفهوم الأفعال الإنجازية الضمنية و يسميها أفعالا إنجازية أولية performatifs primaires، في مقابل مفهوم الأفعال الإنجازية الصريحة performatifs explicites فمثلا عندما أصدر ملفوظا خبريا تأكيديا محذرا من يريد الخروج بقولي :"ستمطر" نكون أمام مضمون قضوي و قيمة تضمينية، و الأمر نفسه إذا أردت التأكيد فقط – دون تحذير مضمر– أي إلى جانب المضمون القضوي هناك قيمة تضمينية تتمثل في أن أظهر صدق القضية التي أتلفظها .مما يعني أنّ الملفوظ الخبري يقتضي هو بدوره المواضعة التي تسمح بتنظيم استعماله(5).

2/ نمذجة أفعال الكلام

يذهب أوستين إلى أنّ الفعل الخطابي يتكوّن من ثلاثة أفعال كلامية، يطلق عليها المصطلحات الآتية : فعل الكلام التلفظي، فعل الكلام الغَرَضي، فعل الكلام التأثيري .غير أنّها كثيرا ما تشهد تشابكا يصعب فكّه – كما سنتبيّنه فيما يأتي –وتأتي هذه الصعوبة بسبب تعدد المعاني التي توظّف فيها الكلمات و اختلافها ؛حيث إنّ للخطاب وظائف متعددة يتوصّل إلى تحديدها بالنظر في كيفية استعمالها ؛ " فالفرق معتبر بين النصيحة و مجرّد الاقتراح و الأمر الفعلي "(6).

1.2 فعل الكلام التلفّظي Acte locutoire

يعرّفه أوستين بأنه نتاج جملة مزوّدة بمعنى و مرجع و هذان العنصران يكوّنان الدلالة (signification)بالمعنى التقليدي للكلمة .و يتشكّل هذا

المستوى الأول من فعل الخطاب من ثلاثة عناصر؛ يستدعي كل واحد منهـا الآخر بشكل تراتبي :

- الفعـل الـصوتي (acte phonétique) الفعـل التعبيـري (acte phatique) - الفعل البلاغي (acte rhétorique)(7) و يطلـق تـسمية متتالية صوتية(phone)على ما يلفظ خلال الفعل الصوتي وتسمية وحـدة معنوية (phéme) على ما يلفظ خلال الفعل التعبيري فالبّبغاء ينتج متتاليـة صوتية وليس وحدة معنوية؛ ذلك أن لهذه الأخيرة بالضرورة معنى. فهـي جملة سليمة مستمدّة من نحو اللغة، ومن كلمات المعجـم. و حتـى ينجـز المتكلّم الفعل التعبيري عليه أن يدرك أنّ لجملته معنى باعتبارها جملة سليمة، غير أنه غير ملزم بمعرفة هذا المعنى(8).

و يقدّم François Récanati مثالا شـارحا ،اسـتمدّه مـن كتـاب speech acts لـ: searle(9) يتمثل في فرضية أنّ أحد الجنود الأمريكيين يؤسر من قبل جنود إيطاليين ولا يريد أن تكشف جنـسيته ،فيعمـل علـى التّظاهر بأنّه ألماني فيتلفّظ بجملة ألمانية كان قد حفظها منذ الـصّغر و قـد يكون قد نسي معناها تماما (على أمل أن يكون آسروه جاهلين للغة الألمانية) وهو يقوم بترديده، يقوم بفعل تعبيري، على اعتبار أنه يدرك أنه يتلفظ متتالية صوتية هي جملة ألمانية. ولتفترض أن الجملة تعني " شجر الليمون مزهـر و قلبي مفعم بالسعادة" هل نعتبر أنه أنجز فعلا تلفظيا ؟ و الجـواب سـيكون طبعا بالنفي، ذلك أن جملة معناهـا (س)لا تعنـي بالـضرورة قـول (س) فالاستظهار ليس تكلما. و بمعنى آخر ،لا يكفي أن ننجز فعلا صوتيا و فعلا تركيبيا لإنجاز فعل تلفظي(10).

و من ثمة، فحتى يتم إنجاز هذا الفعل يجب على المتكلم معرفة معنـى جملته بصورة محددة و عليه أن يعمل على رفع أيّ غموض قد يلحق بمعنى الجملة و هذا بتدقيق أفكاره و تحديدها. و الذي يمكّنه من ذلـك هـو الفعـل البلاغي؛ حيث إنّه يتكون من معنى و مرجع وهـذان العنـصران يـشكلان الدلالة Meaning. و يتم التوصّل إلى هذه الأخيـرة بواسـطة "التـسمية"

naming أي إطلاق تسميات معينة على أشيْاء معينة وتحديد مجال استعمالها ضروري لضبط المعنى المقصود ،كما هو الحال في المشترك اللفظي. ويتم توضيح المرجع بأن ننسب إلى التعابير الإحالية للوحدة المعنوية مرجعا مخصوصا كأن يقول على سبيل المثال : "كنت أقصد مريم بواسطة الضمير هي"(11).

نخلص من هذا، إلى أن " أوستين " يميز بين معنيين :

- المعنى الذي يفيد المعنى التعبيري وهو معنى غائم إلاّ أنه قابل للتعيين.
- المعنى الذي يتيحه الفعل البلاغي وهو معنى معّين ومحدّد لا غموض فيه، باعتباره يحيل إلى دلالة واضحة في ذهن المتكلم. ويقدم الفيلسوف صيغتين يمكن من خلالهما التوصل إلى المعنيين وهما صيغة الخطاب المباشر لتعيين المعنى الأول، وصيغة الخطاب غير المباشر لتعيين المعنى الثاني.

وبناء عليه، فإننا ننقل في الصيغة الثانية المعنى المحدد وهذا ما يدفع المخاطب حين ينقل المعنى البلاغي الذي يشهد غموضا في المعنى أو المرجع إلى نقل هذا الجزء الغامض فحسب بين مزدوجتين ويقدم " أوستين" المثال التالي: " قال: عليك أن تذهب إلى الوزير" (المعنى التعبيري).

قال بأنه يتوجب علي أن أذهب إلى "الوزير"، لكنه لم يحدّد أيّ وزير"(12،13).

مما تقدم يجب أن تتوفر مجموعتان من المواضعات :

– المواضعات الوصفية (CONVENTIONS DESCRIPTIVES) الرابطة الكلمات بأنماط الوضعيات والأشياء والأحداث ...الخ التي يمكن أن نجدها في العالم.

المواضعات الإشارية (CONVENTIONS DEMONSTRATIVES) الرابطة الكلمات بأنماط الوضعيات والأشياء والأحداث ...الخ التاريخية التي يمكن أن نجدها في العالم(14).

فإذا قلنا: " الحصان في المزرعة " فإن كلمة "حصان" مرتبطة بواسطة المواضعات الوصفية للغة لنمط معين من الموضوع، وعبارة "الحصان" تحيل إلى موضوع مخصوص من هذا النمط ممموضع زمانيا ومكانيا بواسطة المواضعات الإشارية، وبفضل هذين الفئتين من المواضعات يكون باستطاعة المتلقي أن يحدد دلالة موضوعه الذي يعنيه الباث أي علاقة المعنى.

2.2 / فعل الكلام الغرضي acte illocutoire

لاحظ " أوستين "أن هناك" قوة " غَرَضية (15) force illocutoire في فعل الكلام التلفظي تصاحب المعنى الصريح و الحرفي الذي يتيحه هذا الفعل؛ ذلك أننا ونحن ننجز فعل الكلام التلفظي نقوم في ذات الوقت بإنجاز تلفظات تعطي بعدا دلاليا أساسيا لهذا الفعل . وحتى يضع تعريفا له ،عمل أولا ،على إبراز الكيفيات المتنوعة التي نستعمل وفقها الملفوظات فنحن :

"- نتساءل أو نجيب

-نقدّم معلومة أو ضمانا أو تحذيرا

- نعلن عن قرار أو قصد

- نتلفظ حكمة أو مثلا

- نسمي أو ندعو، أو ننتقد

- نحقق أو نصف .....الخ " (16).

و كان هدفه في المحاضرة الثامنة من الكتاب دراسة هذا الفعل ، لأنه في رأيه يمثل الفعل الأساسي من الكلام؛ إذ من أهم خصائصه أنه يجب أن ينتج وفقا لمواضعة لسانية-- اجتماعية.وقد لاحظ أن الفلاسفة أهملوا و لزمن طويل دراسة البعد الغرضي الذي يتضمنه فعل الكلام التلفظي قاصرين اهتمامهم على " الاستعمال التلفظي " فحسب .

و تقع الصعوبة – في مثل هذه الاستعمالات – في تعدد معاني

الملفوظات و اختلافها ذلك "أننا نوّظف في فعل القول التلفظي الخطاب لكن وفق أي طريقة تحديدا ؟ تؤدي هذه التساؤلات بالفيلسوف الإنجليزي إلى التمييز بين الدلالة بمعزل عن السياق و الظروف الحافة بعملية التلفظ و قيمة التلفظ valeur de l'énonciation أي اعتبار المعنى بوضعه في السياق الذي يمارس فيه التبادل اللساني و باتفاق الباث و المتلقي .

و هنا يدعو " أو ستين " إلى وجوب التنبّه إلى ثلاثة معايير تسمح باكتشاف فعل الكلام الغرضي و معانيه حيث إنّ الأمر يتعلّق :

1- بفعل منجز ضمن القول نفسه وليس بفعل ناتج عن القول فعندما أقول : " أنا أعد " ، فإنني أنجز فعل الوعد ذاته.

2- بقول يمكن توضيحه بواسطة صيغة إنشائية "أطلب منك أن "...، "آمرك بـ"... ،

3 - بفعل ذي خاصية اتفاقية (اجتماعية-لسانية)تمنح الصيغة المستعملة في مقام معين قيمة غرضية .

ونخلص من هذا إلى أن القيمة الغرضية الماثلة في فعل القول التلفظي تخضع للمقام الذي تنجز فيه العملية التواصلية ،و المواضعة اللسانية-الاجتماعية و أخيرا لعلاقات المتخاطبين .

3.2 / فعل الكلام التأثري acte perlocutoire

ألحّ " أوستين " ابتداء من المحاضرة الثانية و على امتداد محاضرات، على ضرورة التمييز بين فعل الكلام الغرضي وفعل الكلام التأثيري، و اقترح من أجل ذلك صيغتين إجرائيتين هما : " بقول كذا " en disant quelque chose و بفعل قول كذا، ننجز شيئا ما par le fait de dire quelque chose, nous faisons quelque chose؛ مما يعني أن فعل الكلام التأثيري، هو الأثر الذي يحدثه فعل الكلام الغرضي في المخاطب. و يحرص المحاضر على التمثيل لهذه الأبعاد الثلاثة لفعل الكلام بما يلي :

فعل (أ)التلفظي

قال لي "لا يمكنك فعل هذا "
- فعل(ب) الغرضي
احتج على فعلي
- فعل (ج) التأثيري
لقد صرفني ، منعني
فعل(ج ب)
أوقفني ، أعادني إلى صوابي ...الخ
أزعجني(18).

و لتمييز هذه الأفعال الكلامية تجدر الإشارة إلى ملاحظتين حرص الفيلسوف على تأكيدهما :

يمكن تحديد فعل الكلام التلفظي بعرضه على صيغة "قال بأن"...،وفعل الكلام الغرضي بعرضه على صيغة " أؤكّد أنّ "...،وفعل الكلام التأثيري بعرضه على صيغة "أقنعني "...

إنّ أهم ما يميّز فعل الكلام الغرضي عن فعل الكلام التأثيري ،هو الاستعمال الوضعي usage conventionnel حيث إنّ الحديث عن توظيف الكلام للتأكيد أو الاحتجاج أو التحذير و الحديث عن توظيف الكلام للإقناع أو التخويف يبدو من الشاكلة نفسها وهنا يمكن القول إنّ الأمر ينعلّق في الحالة الأولى بالاستعمال الوضعي بمعنى أنه يمكن توضيحه بواسطة الصيغة الإنجازية formule performative في حين لا يمكن ذلك في الحالة الثانية إذ يمكن أن نقول "أنا أؤكد ،أدعّم "....أو "أنا أحذرك من "...غير أننا لا يمكن أن نقول " أنا أقنعك "...أو "أنا أخوفك ..."بالإضافة إلى أنه يمكن الخوض بسهولة في مسألة إذا ما كان أحدهم يحاجج أو لا دون إمكانية الخوض في مسألة معرفة هل يقنع أو لا .

إذا ما توفرت الظروف الملائمة ،فإنه يمكن إحداث فعل الكلام التأثيري وقد تكو ن الآثار الناجمة عنه قصدية أو غير قصدية بينما هي دائما متواضع على قصديتها في فعل الكلام الغرضي(19).

و في الختام و إذا كان لا بدّ من خلاصة لهذه المداخلة المتواضعة – التي لا تدّعي الإلمام بكل ما طرحه أوستين في كتابه من قضايا –يمكن أن نقول : إنّ نظرية أفعال الكلام هي مفهوم أساسي بل حيوي من مفاهيم النظرية التداولية إذ لا يمكن تجاهله في تحليل الخطاب خاصة وأنّ بعض التعريفات المعاصرة المقدّمة للنصّ تستند إلى هذا الحقل المعرفي .و هذا بمعاملتها إياه كمتتالية من أفعال الخطاب التي يمكن أن تعتبر في حدّ ذاتها وفعلا خطابيا موحّدا (20).

كما أنّ الاهتمام بالبعد التداولي – التشكلي la dimension pragmatique-configurationnelle أصبح أمرا لا مهرب منه حيث إنّه " يسمح باعتبار كل نص يرمي إلى تحقيق هدف (صريح أو لا): إنه يسعى إلى التأثير على المعتقدات و/أو السلوك " (21).

الهوامش و المراجع

(1) أصل الكتاب محاضرات ألقاها الفيلسوف اللغوي على طلبته في جامعة Havard سنة 1955 و قام الباحث Jilles Lane بترجمة الكتاب إلى الفرنسية تحت عنوان مغـاير للمعنـى الحرفـي الإنجليزي " عندما يكون القول فعلا" "Quand dire ,c' est faire " و هو الكتاب المعتمد فـي هذه القراءة

(2) M- Bakhtine : Esthétique de la création verbale / Paris /Galimard p :29

(3) يشترط المترجم في المواضعة التي تميّز فعل الكلام الغرضي عنصر "الحرية "فحتى يكـون فعل الوعد صادقا و موثوقا به، على المتكلّم أن يكون حرا في التزامه مـن جهـة، و علـى المخاطب أن يقرّ بقبول الالتزام اتجاهه بحرية أيضا.أنظر ص:117

(4) voir Oswald Ducrot : Analyses pragmatiques in communication 32 édition du seuil 1980, p : 30

(5) J.L.Austin : Quand dire, c'est faire / traduction : Jilles Lane: Editions du Seuil 1970 p97 et suite.

(6) المصدر نفسه :ص 112

(7) يعتبر F-récanati الفعل البلاغي مرادفا لفعل الكلام التلفظي حيث يفتـرض فعـل الكـلام التعبيري فعل الكلام الصوتي .كما يفترض فعل الكلام البلاغي فعل الكلام التعبيـري ، ممـا يجعل كلا منهما حصيلة هذه الأفعال الكلامية الثلاثة :

F .Récanati : Qu'est-ce qu'un acte locutionnaire/communications 32 /p :191

(8) المصدر نفسه:ص109

(9) وظّف" سيرل " J-R-Searle هذا المثال لمناقشة Grice في مفهومه لل"معنى غير الطبيعي " حيث رأى غريس أن القصد intention الماثل في ذهن المتكلّم شرط لوصول المخاطب إلى المعنى ،حسب الصياغة الآتية :" إنّ قولنا ": المتكلم (مت) أراد معنى ما بواسطة (س) ،هو قولنا: أنّ المتكلم كان له قصد إحداث أثر على المستمع بتلقظه س .و يتأتى ذلك بتعـرّف المـستمع على هذا القصد ." أما سيرل فيرى أنّ قضية المعنى هي مسألة مواضعة أكثر مما هي مسألة قصد ،ذلك أنّ الجملة إذا سلمنا برأي غريس يمكن توظّف أن لتؤدّي أيّ معنى إذا ما توفرت الظـروف التي تجعل من وجود المقاصد المطلوبة أمرا ممكنا .و هذا لا يحصل إلاّ نادرا كحالـة الجنـدي الأمريكي الذي يوهم العدو الإيطالي بأنّ جملـة kemmst du das land wo die ziiitromen bluben و التي تعني في اللغة الألمانية هل تعرف وطنا يزهر فيه شجر الليمون ؟ معناها كمـا يقصده الجندي هو " أنا جندي أمريكي " ومن جملة الظروف التي تساعد على نجاح هذا القصد أن يكون الجندي الأمريكي مدركا بأن العدو على علم بوجود جنود أمريكيين فـي المنطقـة بـالزي العسكري الألماني ،و أن لديهم تعليمات بإطلاق سراحهم بمجرد التعرّف على هويتهم الألمانية ،و بأنهم كذبوا على مسئوليهم فيما يتعلّق بمعرفتهم للغة الألمانية .غير أن المواضـعة فـي الغالـب

الأعم هي التي تلعب الدور الأساس في تحديد المعنى ؛ فقولي "صباح الخير " مثلا للمخاطب لا يمكن أن تفهم أنها تحية إلاّ بتوفر شرط المواضعة .

(10) أنظر المصدر نفسه:ص 109 و ما بعدها.

(11) أنظر F .Récanati : Qu'est-ce qu'un acte locutionnaire / communications 32 seuil 1980/p19

(12) المصدر نفسه ص109 و ما بعدها.

(13) المصدر نفسه:ص111

(14) أوضح "أوستين " الغموض الذي اكتنف بعض القضايا الواردة في محاضراته خاصة ما يتعلّق ب المواضعة و مفهوم الحقيقة في مقال نشره تحت عنوان " الحقيقة "(Truth:1950:p:121-122) عند مناقشته ل " ستراوسن .و هذا التصنيف للمواضعة مستمد من هذا المقال .

أنظر : J.searle : LES ACTES DE LANGAGE : Essai de philosophie du langage – collection savoir 1996/pp 84-85

(15) فضّل المترجم استبدال كلمة "قوة " force التي اقترحها أوستين بكلمة قيمةvaleur وهو وإن اعترف بأنه أفرغها من مظهرها الدينامي ،فإنه يلاحظ أنّ كلمة قيمة تعبّر أكثر عن المعنى الذي يقصده المؤلف حيث إنّ القوة لا تكمن في فعل الكلام التلفظي في حد ذاته ،بل في كون هذا الفعل مرهون ببصيرة المخاطب و فطنته . وعليه فهو مزوّد بقيمة معيّنة . إنّ الأمر لا يتعلق هنا بإظهار هذا الإدراك للدلالة بواسطة قوة قسرية، بقدر ما هو عمل على جعل هذا الإدراك قابلا للظهور عند المخاطب مما يجعل كلمة قيمة تلائم كلمة قوة الإنجليزية .

(16) المصدر نفسه ص112

(17) أنظر المصدر نفسه:ص115

(18) المصدر نفسه:ص114

(19) أنظر المصدر نفسه:ص116

(20) J-M –Adam : Eléments de linguistique textuelle - théorie et pratique de l'analyse textuelle - 2 édition/ Mardaga 1990 /p : 103

(21) المرجع نفسه : ص 104